بحث مُحكَّم

الانحراف الفكري وأثره في الأمن في ضوء القرآن الكريم

إعداد:
د. عبدالحميد بن عبدالرحمن السحيباني *

* عضو هيئة التدريس بكلية الملك فهد الأمنية بالرياض.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على أشرف خلقه، وأفضل رسله محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا بحث مُيَسَّر، بذلت فيه جهدي لوضع النقاط على الحروف في موضوع يعرض لأهمِّ مرض عانى منه الكثيرون، ليس في العالم العربي فحسب، بل في العالم أجمع، ذلكم هو الانحراف الفكري الذي دمر كثيراً من الأفراد والأمم، حاولت أن أعرضه للقارئ الكريم، مبيناً أسبابه الظاهرة ومظاهره البارزة في مجتمعاتنا اليوم، خاتماً ببيان طرق الوقاية والعلاج، مستنداً في كل ما أذكر إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ وأقوال سلف الأمة، وحرصت على توثيق المادة العلمية التي أعرضها من مصدرها الأصلي قدر استطاعتي، ولأنني أردته بحثاً قرآنياً اعتمدت على كلام أئمة التفسير، وأعلامه البارزين من المتقدمين، كابن جرير، والبغوي، والقرطبي، وابن كثير، ومن المتأخرين، كالألوسي، والشوكاني، ومحمد الطاهر ابن عاشور، وعبدالرحمن بن ناصر السعدي، كما وثقت الأحاديث من كتب السنة المعتبرة، وحرصت على اختيار الصحيح، وتجنب الضعيف.

ولا بد أن أنبه هنا إلى أنني حرصت على جانب الإقناع بالحجة والبيان و التعليل، لأنه بحث مُوَجَّهٌ إلى الجماهير المسلمة خاصة، وفي هؤلاء من يعتقد أنه في أعلى درجات الاستقامة والسمو، فإذا وقع هذا البحث بين يديه، وقرأه مُحَكِّماً عقله، وسائراً على النظرة التي فطره الله تعالى عليها، وضرب بالهوى والوساوس جانباً فإن عندي أملاً وفالاً بأن يشرح الله تعالى صدره، ويقتنع بما سُطِّر فيه، ويكون ذلك سبباً في عودته إلى صراط الله المستقيم، وإلى منهج الأنبياء والمرسلين، وليس ذلك بعيب ولا منقصة، ولكن العيب أن يستمر المرء في غيه حتى يهلكه ويدمره.

أسأل الله تعالى أن يصلح أمة المسلمين جميعاً، وأن يعيدنا جميعاً إلى الاقتداء بالسلف الصالحين، ويجنبنا طريق المغضوب عليهم والضالين، وأن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم، نافعاً لعباده المؤمنين، وما ذلك على الله بعزيز، والحمد لله رب العالمين،

التمهيد

تعريف الانحراف الفكري لغة واصطلاحاً

الانحراف في اللغة: العدول عن الشيء، يقال: انحرف عنه ينحرف انحرافاً، وحرفته أنا عنه، أي عدلت به عنه، ولذلك يقال: محارف، وذلك إذا حُورفَ كَسْبه فميل به عنه، وذلك كتحريف الكلام، وهو عدله عن جهته، قال الله تعالى: ﴿ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء] (١)(٢).

(١) النساء (٤٦).
(٢) معجم مقاييس اللغة (٢/ ٤٢)، مادة (حرف).

الفكري: نسبة إلى الفكر، والفاء والكاف والراء: تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر إذا ردّد قلبه معتبراً، ورجل فكّير: كثير التفكير(٣).

وفي القاموس: «الفكر بالكسر ويفتح: إعمال النظر في الشيء كالفكرة والفكرى، والجمع أفكار، ويقال: فكر فيه وأفْكر وفكّر وتفكّر وهو فِكّير كثير التفكير»(٤).

والمراد بالانحراف الفكري في الاصطلاح المعاصر: الخروج عن الحد الشرعي الذي حده الله تعالى في كتابه، أو على لسان رسوله محمد ﷺ، وأجمع العلماء على حرمته، وذلك مثل الإلحاد، والتكفير بغير علم، والبغي، وإجازة المحرمات، وغيرها، مما سنبينه تفصيلاً في موضعه من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

ويلاحظ هنا أن هذا الانحراف ناشئ عن الفكر، وذلك أن الغالب على تلك الانحرافات أنها لم تأت ابتداءً، وإنما سبقها مقدمات وتمهيدات، تمثلت في تلك الأفكار التي نمت وترعرعت في عقول المنحرفين حتى قادتهم إلى تلك الأعمال الإجرامية التي عصوا بها ربهم، وخالفوا بها نبيهم محمداً ﷺ، ولم يبالوا بإجماع العلماء على تحريم فعلهم، نسأل الله تعالى أن يحفظ علينا عقولنا، ويجعلنا ممن يستثمرها في خدمة كتابه العزيز، وسنّة نبيه الكريم ﷺ ونفع عباده المؤمنين، إنه على كل شيء قدير.

---

(٣) المرجع السابق (٤/ ٤٤٦)، مادة (فكر).
(٤) القاموس المحيط ص ٥٨٨، مادة (فكر).

المبحث الأول
أسباب الانحراف الفكري

الابتداع

الابتداع لغة: مأخوذ من (بدع)، والباء والدال والعين أصلان أحدهما: ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال، والآخر: الانقطاع والكلال، يقال: أبدعت الراحلة إذا كلّت وعطبت، وأبدع بالرجل إذا كلّت ركابه أو عطبت وبقي منقطعاً به، ويقال: الإبداع لا يكون إلا بِظَلْع، ومن بعض ذلك اشتقت البدعة(٥).

والابتداع في الاصطلاح معناه: أن يأتي المرء بشيء يخالف القرآن أو السنة أو إجماع الأمة، من الاعتقادات أو العبادات، وكل شيء يدين به المرء مما لم يشرعه الله تعالى فإنه يكون بدعة، وإن كان متأولاً فيه(٦).

وقد ذم الله -عزَّ وجلَّ- في كتابه الذين يقلدون ما عليه أسلافهم، ويتبعون ما هم عليه من الشرك والكفر مما يخالف العقل الصحيح والفطرة السوية، وهذا بلا شك هو أعظم الابتداع وأشنعه وأفظعه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (٧). وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ

(٥) «معجم مقاييس اللغة» (١/٢٠٩، ٢١٠) مادة (بدع)، وانظر: «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني ص٣٨، و«القاموس المحيط» ص٩٠٦ مادة (بدع).
(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/٢٤٦)، و«الاستقامة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/٤٢)، و «المفردات في غريب القرآن» ص٢٩.
(٧) البقرة (١٧٠).

اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾(٨).

وهكذا ذمّ الله -عزَّ وجلَّ- من يتبع أهل الجهل والضلال ممن ليس لهم فهم ولا هداية، في عبادة الأصنام والأوثان، وأنهم بذلك يتبعون الشيطان الذي يقودهم بسبب ابتداعهم شيئاً لم يشرعه ربهم وخالقهم، يقودهم إلى عذاب النار المحرقة في الآخرة، وليست دعوة الشيطان لآبائهم ولهم محبةً لهم ومودة، وإنما ذلك عداوة لهم ومكر بهم(٩).

ولا ريب أن من ابتدع شيئاً في الدين لم يشرعه الله تعالى ولا رسوله ﷺ، أن فيه شبهاً باليهود، روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن الآية الأولى آنفة الذكر نزلت في طائفة من اليهود، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام فقالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية(١٠).

ومن شابه اليهود فإنه يُخشى عليه أن يسود وجهه معهم في الآخرة، وقد روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال في تفسير قوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾(١١).

قال: «تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة»(١٢).

ومن هنا يتبين لنا أن الابتداع في الدين شره عظيم، وخطره جسيم، لأنه يزرع الفتن، ويفرق الكلمة، وينشر الظلم والفساد، لأن المسلمين كانوا أمة واحدة على منهج واحد

(٨) لقمان (٢١).
(٩) انظر: «جامع البيان» (٢/٧٧)، و«تفسير القرآن العظيم»، و«زاد المسير» (١/١٧٣)، و«أنوار التنزيل» (١/٤٤٧)، و«مناهل العرفان» (٢/٢٦٢).
(١٠) أخرجه ابن جرير (٢/٧٨).
(١١) آل عمران (١٠٦).
(١٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٩٠).

أيام رسول الله ﷺ وأيام أبي بكر وعمر وعثمان، فلما قتل عثمان -رضي الله عنه- كان قتله من أول أعمال المبتدعة الضُّلال، ثم توالت البدع والفتن على المسلمين ولم تزدهم إلا تشرذماً وضياعاً، وكلما رجع الناس إلى الحق والتزموا السنة تحسنت أحوالهم، وأمنوا على أنفسهم وذرياتهم وممتلكاتهم، وكلما انتشرت فيهم البدع والخرافات والأفكار الهدامة ضعفت دولهم، وجيوشهم، ولم يأمنوا على أنفسهم ولا على ذرياتهم وأموالهم وهكذا.

والمقصود أن الابتداع سبب رئيس في وجود الانحراف الفكري لدى الأمم ولدى الشعوب، وهل الغلو في الدين وما يتبعه من تكفير وتفسيق ثم بغي وعدوان إلا علامة واضحة على الخطر العظيم الذي تقود إليه البدعة بمخالفة الكتاب والسنّة وإجماع سلف الأمة، وذلك ما حذرنا الله تعالى منه بقوله: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ** (٧٧)﴾ [(١٣).

ولقد بيّن سبحانه ما يسلم به العبد من الابتداع وما فيه من الشر والظلم والفساد بعد أن ذم الذين يتبعون ما كان عليه أسلافهم من الجهل والضلال، قال جلَّ شأنه: ﴿**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** (٢٢)﴾ (١٤).

فدل ذلك على أن من يتبع الحق ويخضع له وهو محسن، بأن كان عمله مشروعاً لا ابتداع فيه فقد أسلم واستمسك بالعروة التي من تمسك بها توثق ونجا، وسلم من الهلاك، وفاز بكل خير.

(١٣) المائدة (٧٧)، قال ابن كثير وهو يشرح معنى الآية: «أي لاتجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتم في المسيح، وهو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلهاً من دون الله، وما ذاك إلا لإقتدائكم بشيوخكم شيخ الضلال، الذين ضلوا وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال». «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٨٢).

(١٤) لقمان (٢٢).

ومن لم يسلم وجهه أو لم يحسن لم يستمسك بالعروة الوثقى، وإذا كان كذلك فمآله الهلاك والبوار(١٥).

وعلى العبد إذا أراد أن يسلم من الابتداع الذي يقوده إلى انحراف فكره وسلوكه معاً أن يحذر من جلساء السوء الذين يقودونه إلى الفتنة بإغرائهم وإغوائهم، ويحرص على مصاحبة العلماء الربانيين العاملين للآخرة، ويراجع كتبهم التي تقوده إلى محبة السنة وأهلها وبغض البدعة وأهلها، ويتجنب كتب أهل الزندقة والإلحاد، فإن كثيراً من المبتدعين إنما دخل الابتداع عليهم من هذا الباب.

وعليه كذلك بتدبر القرآن، فإن ترك تدبره يقود إلى الابتداع، كما وصف النبي ﷺ الخوارج بقوله: «يقرأون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم»(١٦).

قال الشاطبي: «يعني -والله أعلم- أنهم لا يتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم؛ لأن الفهم راجع إلى القلب، فإذا لم يصل إلى القلب لم يحصل فيه فهم على حال، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف فقط، وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لا يفهم»(١٧).

اتباع الهوى

الهوى في اللغة: هو محبة الإنسان للشيء، وغلبته على قلبه(١٨).

وفي الاصطلاح: ميلان النفس إلى ما تستنده من غير داعية الشرع(١٩).

(١٥) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ص٦٥٠.
(١٦) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة من صحيحه، باب الخوارج شر الخلق والخليقة (٢/ ٧٤٠)، الحديث (١٠٦٧).
(١٧) «الاعتصام» (٢/ ٤٢٤).
(١٨) انظر: «لسان العرب» (١٥/ ٣٧٢)، مادة (هوا).
(١٩) انظر: «التعريفات» الجرجاني ص٣٢.

ولما كان اتباع الهوى سبباً رئيساً في انحراف الإنسان حذّر الله تعالى منه أعظم تحذير، قال سبحانه: ﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢٠)، وقال: ﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (٢١). وقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾(٢٢).

وقد بيّن سبحانه آثار اتباع الهوى المتمثلة في انحراف المرء عن الصراط المستقيم الذي أمر الله تعالى به العباد، فهو سبب في الإضلال، ووسيلة إلى الوقوع في الظلم، وهو مانع رئيس من موانع العدل، وبالوقوع فيه تسقط ولاية الله تعالى له ونصرته.

فأما كونه سبباً في الإضلال فلقوله سبحانه في سورة الأنعام ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾(٢٣)، وقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾(٢٤) وقوله سبحانه: ﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢٥).

قال ابن جرير: «أي لا تؤثر هواك في قضائك بينهم على الحق والعدل فيه، فتجور عن الحق، فيضلك عن سبيل الله، أي يميل بك اتباعك هواك فضائق عن العدل والعمل بالحق عن طريق الله تعالى الذي جعله لأهل الإيمان، فتكون من الهالكين بضلالك عن

(٢٠) المائدة (٤٨).
(٢١) الأنعام (١٥٠).
(٢٢) الجاثية (١٨).
(٢٣) الأنعام (١١٩).
(٢٤) القصص (٥٠).
(٢٥) سورة ص (٢٦).

سبيل الله، فإن الذين يميلون عن سبيل الله، وذلك الحق الذي شرعه لعباده، وأمرهم بالعمل به، فيجورون عنه في الدنيا، لهم في الآخرة يوم الحساب عذاب شديد على ضلالهم عن سبيل الله تعالى بما نسوا أمر الله تعالى، وهو القضاء بالعدل والعمل بطاعة الله تعالى»(٢٦).

وأما كونه وسيلة إلى الوقوع في الظلم فلقوله سبحانه: ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ** ﴿١٤٥﴾ ﴾(٢٧) وهذه الجملة كلها تهديد.

وبيان ذلك من سبعة أوجه، ذكرها البيضاوي، وهي:

١- «الإتيان باللام الموطئة للقسم.

٢- القسم المضمر.

٣- حرف التحقيق وهو (إنْ).

٤- تركيبه من جملة اسمية وجملة فعلية.

٥- الإتيان باللام في الخبر.

٦- جعله من الظالمين ولم يقل: إنك ظالم، لأن في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم.

٧- التقييد بمجيء العلم، تعظيماً للحق المعلوم وتحريضاً على اقتفائه، وتحذيراً عن متابعة الهوى، واستفظاعاً لصدور الذنب عن الأنبياء»(٢٨).

---

(٢٦) «جامع البيان» (٢٢/١٥٢)، وانظر «معالم التنزيل» (٤/٥٩)، و«تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٢)، و«إرشاد العقل السليم» (٧/٢٣٣)، و«مجموع الفتاوى» (١٥/٢٤١، ٤٢٣).

(٢٧) البقرة (١٤٥).

(٢٨) «أنوار التنزيل» (١/٤٢٣)، وانظر: «جامع البيان» (٢/٢٤)، و«تفسير القرآن العظيم» (١/١٩٥)، و«زاد المسير» (١/١٥٧).

وأما كون اتباع الهوى مانعاً من موانع العدل، فلقوله جلَّ وعلا: ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴿١٣٥﴾﴾ (٢٩).

قال ابن كثير: «أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال».

ومن ذلك قول عبدالله بن رواحة -رضي الله عنه- لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم»(٣٠).

وأما سقوط ولاية الله تعالى ونصرته عمّن اتبع الهوى فلقوله سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ (٣١).

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ (٣٢).

قال ابن سعدي: «فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

(٢٩) النساء (١٣٥).
(٣٠) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٣/١٢٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر: تفسير ابن كثير (١/٥٦٦)، و«معالم التنزيل» و«زاد المسير» (٢/٢٢٢).
(٣١) البقرة (١٢٠).
(٣٢) الرعد (٣٧).

السبب»(٣٣).

وقد استدل الإمام أحمد بهذه الآية على كفر من قال بخلق القرآن، والقول بخلق القرآن من أعظم الانحرافات الفكرية التي نشأت منذ عدة قرون، قال يرحمه الله بعدما سئل عن رأيه فيمن قال: إن القرآن مخلوق، قال: كافر. قيل: بمَ كفرته؟قال: بآية من كتاب الله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴿١٢٠﴾﴾ (٣٤).

وهكذا يتبين لنا ما يقود إليه اتباع الهوى من الشرور والمفاسد العظيمة التي لا تخفى، وقد ثبت في الحديث: «إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء»(٣٥).

وليعلم العبد أن نجاته في الدنيا والآخرة مرتبطة ارتباطاً عظيماً بترك الهوى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١](٣٦).

ولما كان ترك اتباع الهوى بهذه المثابة العظيمة نبّه إلى ذلك العلماء في مصنفاتهم، وبينوا ما يقود إليه من الدمار والهلاك، لأن المرء إذا سلم منه كان عبداً لله تعالى حقاً، قال الشاطبي: «فإن المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله تعالى اختياراً، كما هو عبدالله اضطراراً»(٣٧).

---

(٣٣) «تيسير الكريم الرحمن» ص٦٥، وانظر: «جامع البيان» (١/٥١٨)، و«روح المعاني» (١٣/١٦٨).
(٣٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/٩٤).
(٣٥) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» برقم (١٤) وصححه الألباني.
(٣٦) النازعات (٤٠, ٤١).
(٣٧) «الموافقات في أصول الشريعة» (٢/١٢٨).

اتباع المتشابه

المتشابه في اللغة هو الشيء الملتبس لإشباه بعضه ببعض، يقال: شبّه عليه الأمر أي خلّطه عليه حتى اشتبه بغيره(٣٨).

والمراد بالمتشابه الذي يوقع اتِّباعُه في الانحراف الفكري هو ما كان ملتبساً على الأفهام، مما تشابهت ألفاظه، واحتمل صرف صارفه في وجوه التأويلات باحتماله المعاني المختلفة(٣٩).

وقد حذّر الله -عزَّ وجلَّ- منه بقوله: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ** ﴿٧﴾ ﴾ (٤٠).

وإن الذي يراجع ما كتبه المفسرون في تفسير الآية الكريمة يجد أن اتباع المتشابه إنما اشتغل به أصحاب الفرق المنحرفة لتقوية مذهبهم الضال، فهم يطلبون تأويله ليس لأجل الوصول إلى الحق، والجمع بين الآيات المتشابهة بردها إلى المحكم، وإنما يهدفون من وراء ذلك إلى دعم مذهبهم ونصره وبيان أنه الحق وما سواه باطل، ولذلك قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ** ﴾، فوصف الذين يتبعونه بأن في قلوبهم زيغاً، ومثل العلماء لهم بالخوارج الذين خرجوا على عليٍّ -رضي الله عنه- بدعوى ضلاله وعدم انتصاره للحق، وبالزنادقة الذين لا ينتحلون ديناً، ولا يتمسكون بشريعة، وبالجهمية أصحاب الجهم بن صفوان الذين قالوا بعدم جواز وصف الله تعالى بصفة اتصف بها

(٣٨) انظر: «القاموس المحيط» ص١٦١٠، و«لسان العرب» (١٢/ ٥٠٤).
(٣٩) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٨) ط. دار الكتب العلمية، و«تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٤٥)، و«الموافقات في أصول الشريعة» (٢/ ٦٨).
(٤٠) آل عمران (٧).

خلقه، والمعتزلة أصحاب واصل بن عطاء رأس الاعتزال الذي طرده الحسن البصري عن مجلسه لما قال: الفاسق لا مؤمن ولا كافر، وغيرهم(٤١).

* ومما يؤكد لنا أن اتباع المتشابه من غير إرادة الوصول إلى الحق يوقع في الانحراف الفكري ما كان يفعله واصل بن عطاء، فإنه كان يصلي بالليل ودواة ولوح موضوعان عنده، فإذا مرت به آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد إلى صلاته(٤٢).

ومن ذلك ما جاء عن محمد بن علي عن رزام الطائي الكوفي، قال: كنت بمكة حين كان سليمان بن حسن القرمطي زعيم القرامطة بمكة وهم يقتلون الحُجَّاج ويقولون: أليس قد قال لكم محمد المكي ﴿ **وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** ﴿٩٧﴾ ﴾ (٤٣) فأي آمن هنا؟! قال فقلت له: هذا خرج في صورة الخبر والمراد به الأمر، أي ومن دخله فأمنوه(٤٤).

وهكذا يتضح لنا مدى خطورة هذا العمل الذي حذّر الله -جلّ وعلا- من أهله لما تلا الآية: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴿٧﴾ ﴾ (٤٥). ثم قال: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم»(٤٦).

والعلاج هنا أن يحذرهم ولاة الأمر من حكام المسلمين وعلمائهم من سلوك هذا المسلك المشين، ويحثوهم على مراجعة العلماء الربانيين فيما اشتبه عليهم، فإن عادوا

(٤١) انظر: «جامع البيان» (٣/١٨٢)، ط. دار الكتب العلمية. و«مجموع الفتاوى» (١٧/٤١٥).
(٤٢) «اتباع الهوى» للشيخ سليمان الغصن ص٤٦.
(٤٣) آل عمران (٩٧).
(٤٤) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٢٩)، و«زاد المسير» (١/٤٢٦)، و«تفسير التحرير والتنوير» (٢/٦٢).
(٤٥) آل عمران (٧).
(٤٦) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٨/٢٠٩) برقم (٤٥٤٧)، ومسلم في كتاب العلم (٤/٢٠٥٣) برقم (٢٦٦٥) من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

وأرادوا التلبيس على المسلمين عوقبوا وعزروا كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بصبيغ بن عسل، فإنه لمّا بلغه أنه يسأله عن متشابه القرآن بعث إليه وقد أعد له عراجين النخل، فلما دخل عليه جلس، فقال له عمر -رضي الله عنه-: «من أنت؟ فقال: أنا عبدالله صبيغ. فقال: وأنا عبدالله عمر، ثم أهوى إليه، فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجّه، فجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنت أجد في رأسي»(٤٧).

التعصب والتحزب

قال في القاموس: تعصب: أتى بالعصبية(٤٨)، وهي أن يدعو الرجل إلى نصرة جماعته، وحازبوا وتحزبوا: صاروا أحزاباً، وقد حزبتهم تحزيباً(٤٩).

ونعني بالتعصب هنا: أن يجعل العبد ما يصدر عن شخصٍ ما من الرأي والاجتهاد حجةً عليه وعلى سائر العباد(٥٠).

وأما التحزب فهو التجمع لشخص أو طائفة أو نحوهما، والاعتقاد أنهم على حق وغيرهم على باطل(٥١).

وهاتان الخصلتان من الخصال التي حذّرت منها الشريعة أيما تحذير؛ لأن المرء إذا وقع

(٤٧) «الشريعة» للإمام الآجري ص٧٣. وصبيغ بن عسل، رجل من تميم، اتهم بانحيازه لفكر الخوارج، جلده عمر لاتباعه المتشابه، فلما تاب أمر المسلمين بمراجعته - انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/١٧٤)، و(٢٨/٤٧٤).
(٤٨) «القاموس المحيط» ص١٤٨، مادة (عصب).
(٤٩) المرجع السابق ص٩٤، مادة (حزب).
(٥٠) انظر: «لسان العرب» (١/٦٠٦)، مادة عصب.
(٥١) انظر: «معجم مقاييس اللغة» (٢/٥٥).

فيهما أعمتا بصره، وأغشتا عقله، فلا يرى حسناً إلا ما حسن في رأيه، ولا صواباً إلا ما ذهب إليه، أو من يتعصب ويتحزب له.

وأول من حاول نشر العصبية والتحزب بين المسلمين لتدميرهم وجعل بعضهم يعتدي على الآخر هم أهل الكتاب.

فأما اليهود فيشهد لفعلهم ما قام به أحد كبرائهم في زمن النبي ﷺ وهو شاس بن قيس، وكان عظيم الكفر، شديد الحسد للمسلمين، قام هذا اليهودي فأمر فتى شاباً معه من يهود أن يدخل على الأوس والخزرج في مجلسهم ويذكِّرهم يوم بعاث، وهو اليوم الذي اقتتلت فيه الأوس والخزرج قبل الإسلام، ففعل، فتنازعوا وتفاخروا، حتى هموا أن يقتتلوا لولا رحمة الله تعالى، فقد رحمهم برسول الله ﷺ، فقد أتاهم، ووعظهم وذكرهم، فعلموا أنها نزعة شيطان، وألقوا السلاح، وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً، وأنزل الله تعالى في شاس بن قيس قوله: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)** ﴾ (٥٢)، وأنزل في الذين هموا بالقتال من الأوس والخزرج: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٧)** ﴾(٥٣).

وأما النصارى فكانوا أيام الحروب الصليبية يدعون إلى العصبية العرقية بين المسلمين لتحل محل العقيدة، وحاولوا عدم إيجاد علاقة تربط المسلم العربي بالمسلم من العجم،

(٥٢) آل عمران، (٩٨-٩٩).
(٥٣) أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية (١/٥٥٥)، وابن جرير في تفسيره جامع البيان (٢/٣٧١) ط. دار لكتب العلمية.

حتى لا يكون هناك تآخ ومحبة بين جميع المسلمين (٥٤).

ومن هنا لما كان التحزب والتعصب لطائفة أو شخص سبباً في انحراف المرء عن الصواب وخروجه عن المنهج الوسط الذي يحبه الله تعالى لما كان الأمر كذلك حذرنا الله تعالى، منه أشد تحذير، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴿١٠٥﴾ ﴾(٥٥)، وقال سبحانه: ﴿ **مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴿٣١﴾ **مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴿٣٢﴾ ﴾ (٥٦).

يقول ابن جرير -يرحمه الله-: «يخبر سبحانه نبيه ﷺ أنه بريئ ممن فارق دينه الحق وفرقه، وكانوا فرقاً فيه وأحزاباً شيعاً، وأنه ليس منهم ولا هم منه؛ لأن دينه الذي بعثه الله تعالى به هو الإسلام دين إبراهيم الحنيفية».

فكان من فارق دينه الذي بعث به ﷺ من مشرك ووثني ويهودي ونصراني ومتحنف مبتدع قد ابتدع في الدين ما ضل به عن الصراط المستقيم والدين القيم ملة إبراهيم المسلم، كان ذلك بريئاً من محمد ﷺ ومحمد منه بريء، وهو داخل في عموم قوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ** ﴿١٥٩﴾ ﴾(٥٧).

وإن المتأمل في الأحداث المأساوية التي ظهرت في بعض البلاد الإسلامية يجد أن من أبرز أسبابها، حقاً الحزبية والتعصب لأحد بعينه، فقد رأى أولئك أن الصواب مع حزبهم،

(٥٤) انظر: «المغالطات وأثرها في الأمة» للأستاذ محمود شاكر ص٨٨, ٩٠.
(٥٥) آل عمران، (١٠٥).
(٥٦) الروم (٣١، ٣٢).
(٥٧) «جامع البيان»)١٠٦/٨)، وانظر: «معالم التنزيل» (٤٨٢/٢)، و«مجموع الفتاوى» (١٤٢/١٣)، و«روح المعاني» (٧٢/٨).

وأن ذلك الرجل هو من يجب أن يجتمع الناس تحت رايته، وأما غيرهم فهم ضُلال أو كُفّار أو فُسّاق حسب تصنيفه الذي مُني به، ولو كان عاقلاً منصفاً لأدرك أن آراء الرجال كثيراً ما تقود إلى الهلاك والبوار، فليست مرجعاً ولا حجة، وإنما الذي تبرأ به الذمة الاستمساك بالنص الشرعي على ما فهمه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ممن يحرزون عن الزلل أشد التحرز، ذلك هو سبيل النجاة من الحزبية المقيتة، والتعصب البالي، يعيه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الأخذ بالإشاعات

الإشاعات جمع إشاعة وهي الذيوع والانتشار، يقال: «شاع الشيب أي انتشر، وشاع الخبر أي ذاع، والشاعة: الأخبار المنتشرة، ورجل مشياع أي مذياع لا يكتم سراً، ويقال: شاع القوم أي انتشروا»(٥٨).

والمراد بالإشاعات اصطلاحاً: الأقوال والأخبار التي يتناقلها الناس بينهم، ويعتمدون عليها ويأخذون بمضمونها دون التثبت من صحتها والتحقق من هوية ناقلها.

ولقد ثبت من خلال النظر في تاريخ الإسلام الطويل أن عدو المسلمين ينطلق في حربه للمسلمين من منطلقات وأسس، أبرزها نشر الشائعات المغرضة التي هدفها زعزعة صفوف المؤمنين، كما حصل من ابن سلول لما أشاع الفرية الظالمة ضد عائشة -رضي الله عنها- فصدقها بعض المسلمين، ونشروها دون تثبت ولا رويَّة، فكان له أثره المؤلم في بيت النبوة، ثم جاءت البراءة من عند العليم الخبير لتعطي المسلمين درساً لن ينسى أبد الدهر.

(٥٨) «لسان العرب» (١١٩/٨) مادة شيع، وانظر: «القاموس المحيط» ص٩٤٩، مادة شاع.

كما أشاع المنافقون الذين خرجوا على عثمان -رضي الله عنه- كتاباً نسبوه إلى علي -رضي الله عنه- بأنه قد دعا إلى الخروج على عثمان، كما أشاعوا كتاباً آخر نسبوه إلى عائشة تدعو كذلك إلى الخروج على عثمان -رضي الله عنه-(٥٩). هكذا أشاعوا، وقد افتروا وظلموا، وكانت نتيجة ترويج مثل هذه الإشاعات الكاذبة الخروج على عثمان -رضي الله عنه- ثم قتله بعد ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

واليوم يروَّج بين الناس كثير من الشائعات المغرضة عن طريق الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) مما يزرع الضغينة والعداوة بين المسلمين، فيتلقّفها كثير من الناس، ويسلمون بها، بل ينشرونها على أنها أخبار صحيحة رغم أنه لا يعرف قائلها، ولا جهته، وقد يكون عدواً خارجياً يريد أن يفعل ما فعله ابن سبأ أيام عثمان، من نشر الفرقة والعداوة، وإذكاء نار الحروب والاقتتال بين المسلمين، والمسلم اللبيب العاقل لا تنطلي عليه مثل هذه الأعمال الشريرة والمقاصد الفاسدة؛ لأنه يقرأ القرآن الذي حذّر فيه -سبحانه- من تلقف الإشاعات ونشرها دون بينة.

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (٦٠).

«إن القرآن هنا يرسم صورة لتلك الفترة يوم حادثة الإفك، والتي أفلت فيها الزمام، واختلت فيها المقاييس، واضطربت فيها القيم، وضاعت فيها الأصول.

إنها صورة فيها قلة التحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام.

(٥٩) انظر: «عبدالله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام» للدكتور سليمان بن حمد العودة ص١٦١.
(٦٠) النور (١٥).

لسان يتلقى على لسان، بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبره القلوب ﴿ **وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ** ﴾ بأفواهكم لا بوعيكم ولا بقولكم ولا بقلوبكم، إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه قبل أن تستمر في المدارك، وقبل أن تتلقاها العقول: ﴿ **وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ** (١٥) ﴾ وإنه ما يعظم عند الله تعالى إلا الجليل الضخم الذي تزلزل له الرواسي وتضج منه الأرض والسماء.

ولقد كان ينبغي أن تجفل القلوب من مجرد سماعه، وأن تتحرج من مجرد النطق به، وأن تنكر أن يكون هذا موضوعاً للحديث، وأن تقذف بذلك الإفك بعيداً عن الجو الطاهر الكريم»(٦١).

ويأتي الإرشاد الرباني موجهاً الصحب الكرام والمسلمين جميعاً إلى الموقف الأسمى من كل إشاعة تظهر بين الحين والآخر، فيقول سبحانه: ﴿ **وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** (١٦) ﴾(٦٢).

إن هذه اللمسة عندما تصل إلى أعماق القلوب فتهزها هزاً، وهي تطلعها على ضخامة ما جنتْ، وبشاعة ما عملت عندئذ يجيء التحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم: ﴿ **يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (١٨) ﴾(٦٣).

---

(٦١) «في ظلال القرآن» (٤/٢٥٠٢، ٢٥٠٣)، وانظر: «إرشاد العقل السليم» (٦/١٦٢)، و«معالم التنزيل» (٢/٢٣٢)، و«مجموع الفتاوى» (١٥/٣٣١).
(٦٢) النور (١٦).
(٦٣) النور (١٧-١٨).

﴿ **يَعظُكُمُ** ﴾ في أسلوب التربية المؤثر، في أنسب الظروف للسمع والطاعة والاعتبار، مع تضمين اللفظ معنى التحذير من العودة إلى مثل ما كان: ﴿ **يَعظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لمثْله أَبَدًا إن كُنتُم مُّؤْمنينَ** ﴾ والمؤمنون لا يمكن أن يكشف لهم عن بشاعة عمل كهذا الكشف، وأن يحذروا منه مثل هذا التحذير ثم يعودوا إليه وهم مؤمنون ﴿ **وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَات وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ** ﴾ على مثل ما بين في حديث الإفك، وكشف عما وراءه من كيد، وما وقع فيه من خطايا وأخطاء ﴿ **وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ (١٨)** ﴾ يعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف، ويعلم مداخل القلوب ومسارب النفوس، وهو حكيم في علاجها، وتدبير أمرها، ووضع النظم والحدود التي تصلح بها(٦٤).

ومثل هذا التحذير جاء في سورة التوبة، فقد بين سبحانه أن في المسلمين من يجهل حال المنافقين الذين ينشرون الشائعات المغرضة في صفوف المؤمنين أثناء القتال مع العدو، فيستمع لهم هؤلاء المسلمون جهلاً بحالهم، فيؤدي ذلك إلى الفتنة والشر العظيم، فذكرهم سبحانه ليحذروا من أولئك.

﴿ **لَوْ خَرَجُوا فيكُم مَّا زَادُوكُمْ إلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفتْنَةَ وَفيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** ﴾ (٦٥).

يقول ابن كثير: «يقول تعالى ﴿ **لَوْ خَرَجُوا** ﴾ أي معك إلى الغزو لأعدوا له عدة، أي لكانوا تأهبوا له ﴿ **ولكن كره الله انبعاثهم** ﴾ أي أبغض أن يخرجوا معكم قدراً، فثبطهم أي أخرهم، وقيل: اقعدوا مع القاعدين، أي قدراً، ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع

(٦٤) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٥٠٣).
(٦٥) التوبة (٤٧).

المؤمنين فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ [التوبة: ٤٧] أي لأنهم جبناء مخذولون، ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي ولأسرعوا السير بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي مطيعون لهم، ومستجيبون لحديثهم وكلامهم، يستنصحون وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير»(٦٦).

المبحث الثاني
أبرز مظاهر الانحراف الفكري

لا يمكن التحدث عن جميع مظاهر الانحراف الفكري لأنه لا حصر لها، ويمكن إبراز أهمها فيما يأتي:

إنكار الخالق سبحانه:

إن إنكار وجود الله تعالى أو ما يسمى بالإلحاد انحراف فكري قديم، أشار الله عزَّ وجلَّ إليه في القرآن، ورد عليه، قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾(٦٧).

هذا هو قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، إنهم يقولون: ما ثم إلا هذه الدار يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا

(٦٦) «تفسير القرآن العظيم» (٢/٣٦٢)، وانظر: «معالم التنزيل» (٢/٢٩٨)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٤/٣٢٠)، و«إرشاد العقل السليم» (٤/٧١)، و«فتح القدير» للشوكاني (٢/٢٦٦).
(٦٧) الجاثية (٢٤).

يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، وتقوله كذلك الفلاسفة الإلهيون منهم، ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع سبحانه، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تناهى، فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿ **وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ** ﴾ **قال الله تعالى:** ﴿ **وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ (٦٨).

ومن الزنادقة والدهرية من يحتج هنا على المسلمين في إنكار الخالق بحديث: «يسب ابنُ آدم الدهرَ وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار»(٦٩)، ويقولون: ألا تراه يقول: وأنا الدهر، وهذا باطل، وبيان ذلك أن العرب في جاهليتهم كانوا إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر، ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنهم سبوا الله عزَّ وجلَّ، لأنه فاعل تلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار. لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال، وهذا أحسن ما قيل في تفسيره، والله أعلم(٧٠).

والمقصود أن أولئك الدهرية الملاحدة لما اتخذوا إلههم أهواءهم قادتهم إلى هذه المزالق والانتكاسات من انحراف أفكارهم عن الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها: ﴿ **بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ** ﴿٢٩﴾ **فَأَقِمْ**

---

(٦٨) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٥١)، وانظر: «جامع البيان» (٢٥/ ١٥٢)، و«معالم التنزيل» (٤/ ١٦٠)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٥/ ٢٦٦).

(٦٩) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٨/ ٥٧٤)، برقم (٤٨٣٦)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب (٤/ ١٧٦٢) برقم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة.

(٧٠) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٥٢)، و«لسان العرب» (٤/ ٢٩٢) ماد (دهر).

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٧١).

ومثل هؤلاء الدهرية الملاحدة الزنادقة المنكرون للنبوات وحدوث العالم والمعاد، والجهمية والمعطلة لصفات الرب سبحانه وأفعاله، فإن هاتين الطائفتين لم تثبت للعالم صانعاً البتة، فإن الصانع الذي أثبتوه وجوده مستحيل، بله أن يكون واجب الوجود قديماً.

إن زنادقة الفلاسفة أثبتوا للعالم صانعاً لفظاً لا معنى، ثم لبَّسوا على الناس وقالوا: إن العالم صنعه وفعله وخلقه، وهو في الحقيقة عندهم غير مصنوع ولا مخلوق ولا مفعول، ولا يمكن على أصلهم أن يكون العالم مخلوقاً ولا مفعولاً.

فحقيقة قول هؤلاء هو القول بالدهر وإنكار الخالق بالكلية، وقد سدوا على أنفسهم طريق العلم بإثبات الخالق وتوحيده بمشاركتهم في الأصل، وإن باينوهم في بعض لوازمهم، كإثباتهم كون الرب تعالى قادراً مريداً فاعلاً بالاختيار، وإثباتهم معاد الأبدان والنبوة، ولكن لم يثبتوا ذلك على الوجه الذي جاءت به الرسل، ولا نفوه نفي إخوانهم الملاحدة، بل اشتقوا مذهباً بين المذهبين، وسلكوا طريقاً بين الطريقين، لا للملاحدة فيه وافقوا، ولا للرسل اتبعوا، ولهذا عظمت بهم البلية على الإسلام وأهله بانتسابهم إليه، وظهورهم في مظهر ينصرون به الإسلام ويردُّون به على الملاحدة، فلا للإسلام نصروا، ولا لأعدائه كسروا(٧٢).

ومثل الملاحدة القدماء ملاحدة العصر ممن أضله الله على علم وختم على سمعه وجعل

(٧١) الروم (٢٩ ، ٣٠).
(٧٢) انظر: «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» لابن القيم، (٣/٩٦٢ ، ٩٧٢).

على بصره غشاوة، كمن يزعم عبثية الحياة، وأنه لا غاية من وجودها، ولا معنى لها، والشك في وجود حياة أخرى بعد الموت، وأن الحياة مصادفة عمياء، وأن الإنسان ما هو إلا ابن المصادفة، وأنه لا هدف من خلق الإنسان، ولا غاية في موته، فيصبح بعد موته كأنه لم يكن(٧٣).

وهكذا فإن مثل هؤلاء لما اتبعوا أهواءهم وأخذوا علمهم من غير مصدره الصحيح وقعوا فيما وقعوا فيه من الإلحاد، وعميت أبصارهم، وانشغلت قلوبهم عن قوله سبحانه في بيان الحكمة من الخلق: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)** ﴾ (٧٤)، وقوله: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧)** ﴾(٧٥)، وقوله: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)** ﴾ (٧٦).

وقل مثل ذلك فيما بينه سبحانه من الحكمة في وجود الحياة الأخرى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)** ﴾(٧٧).

استحلال المحرمات الشرعية

إن من أعظم الانحرافات الفكرية التي وقع فيها كثير من المسلمين اليوم استحلال المحرمات

(٧٣) انظر: الانحراف الفكري لأصداء كتاب السيرة الذاتية، للدكتور محمد بن عبدالله الشباني، مجلة البيان، العدد ١٢٩.
(٧٤) المؤمنون (١١٥ ، ١١٦).
(٧٥) هود (٧).
(٧٦) الإنسان (٢).
(٧٧) سورة ص (٢٧ ، ٢٨).

الشرعية المعلوم تحريمها في شريعة الإسلام والتي جاء بها نبينا محمد ﷺ، وقد حذر الله -عزّ وجلّ- من ذلك؛ لما يترتب على ذلك من المزالق الخطيرة التي تدمر البلاد والعباد، قال جلّ شأنه: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (٧٨).

هنا يحذر سبحانه من سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك مما كان شرعاً لهم في جاهليتهم، ويدخل في هذا التحذير كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي، أو حلّل شيئاً مما حرمه الله تعالى، أو حرّم شيئاً مما أباحه الله تعالى بمجرد رأيه وتشهيه(٧٩).

إن استحلال المحرمات من الافتراء على الله تعالى، وصاحبه متوعد بأليم العقاب في الآخرة لتعديه حدود الله تعالى وخروجه على منهج الله الذي رسمه للخلق ليتبعوه ولا يتجاوزوه: ﴿ فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (٨٠).

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (٨١).

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىَ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىَ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٨٢).

(٧٨) النحل (١١٦، ١١٧).
(٧٩) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٥٩١)، و«أنوار التنزيل» (٣/ ٤٢٤). و«زاد المسير» (٣/ ٥٠٢)، و«فتح القدير» (٣/ ٢٠١).
(٨٠) آل عمران (٩٤).
(٨١) النحل (١٠٥).
(٨٢) هود (١٨).

* ومن استحلال المحرمات ما يفعله بعض الجهلة من الاعتداء على المسلمين بالقتل أو الإيذاء أو الإخافة أو أي نوع من أنواع انتهاك حرمات المسلمين لشبهة عرضت له، فجعلها ديناً يتبعه ويعمل به رغم أن أهل الشريعة -وهم العلماء- لم يقر أحد منهم بأن تلك الأعمال من المباحات!

* ومن استحلال المحرمات ما يقوله ويعلنه على الملأ بعض المهووسين ممن اتخذ الدين لعباً، واتبع هواه، فأباح الزنى الذي حرمه الله تعالى وسمَّى تلك العلاقات الشياطنية «رحمة» فتطاول بذلك على القيم والأخلاق بتمجيد الرذيلة، والدعوة إلى الفجور الذي يوجب في حقه التعزير في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة إن لم يتب الله تعالى عليه.

* ومثله من يحكم على شرع الله تعالى في الزاني والزانية المحصنين والرجم بأنه إنما صدر لأجل سبب تافه!

هكذا يؤدي به انحرافه الفكري الناشئ من اتباع الهوى والانقياد للشيطان الرجيم إلى الحكم على الجريمة والانحلال والفسوق والفجور بأنه سبب تافه، على الرغم من كونه حكماً شرعياً فرضه رب العالمين في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولم يختلف في بيان بشاعة الزنا وخطره وضرره العظيم في الدنيا والآخرة أحد من علماء الإسلام سلفاً وخلفاً.

* ومن ذلك ما يقوله بعض المنحرفين من إجازة الغناء وآلات الموسيقى والطرب، رغم أنه جاء في الكتاب والسنّة المطهرة من النصوص الكثيرة ما يدل دلالة قاطعة على تحريم الأغاني وآلات المعازف، والتحذير منها، والتشديد في استعمالها، وبيان أنها صوت الشيطان وخطواته، وأنها من أسباب الضلال واتخاذ آيات الله هزواً(٨٣).

(٨٣) انظر: «نزهة الأسماع» لابن القيم ص٣٦، ٢٥٧.

* ولا يقل خطورة وانحرافاً عن المستحل للمحرمات مَنْ يستهين بالحدود الشرعية أو يفسرها حسب هواه وما تشتهيه نفسه، وذلك نحو من يدعي أن من يقول: (لا إله إلا الله) مسلمٌ مهما فعل من المحرمات، أو ارتكب من الموبقات التي منها ما يخرجه عن الإسلام إذا رجعنا إلى الشرع الحنيف في أصوله وفروعه.

ذلك هو مذهب المرجئة، وهو ضلال كبير وانحراف خطير، لأن الأدلة المتعددة تدل على أنه من نطق بـ(لا إله إلا الله) ولم يعمل بمقتضاها فإنه لا يكون مسلماً كما قال ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية: «والشارع -عليه صلوات الله وسلامه -لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن المنافقين يقولون بألسنتهم وهم تحت الجاحدين، في الدرك الأسفل من النار»(٨٤).

ونقل عن الحسن البصري -رحمه الله- قوله: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكنه ما وقر في الصدور وصدقته الأعمال»(٨٥).

* ومن ذلك كذلك التساهل في مسألة استحلال أعراض المسلمين، وبخاصة العلماء، وذلك أن بعض مرضى القلوب ممن انحرف فكره واتبع هواه يصف علماء الإسلام المعروفين بالتقوى والورع والزهد بأقبح الصفات وأشنعها، ويجهل أن لحوم العلماء مسمومة، وأن غيبتهم والقدح فيهم يردي فاعله، ويوجه الطعن والعيب عليه حتى يهلكه هلاكاً حسياً كما يهلكه معنوياً بموت قلبه وفساد نفسه، ومما ذكر قديماً «أن بعض المجازفين تكلم في أحد العلماء وبسط المقال فيه مسيئاً، فلم يلبث أن أصابته بشؤم إساءته عللٌ

(٨٤) «شرح العقيدة الطحاوية» ص٣٢٤.
(٨٥) المرجع السابق.

منكرة، وذكر أنه انشق جوفه، ومات ميتة سوء، واشتهر فيما بين من عرف حاله وسمع مقاله: إن لحم فلان سمّه، يعنون أن لحوم العلماء مسمومة»(٨٦).

وهكذا، فإن الانحرافات الفكرية المتعلقة باستحلال المحرمات، وما يتبعه من الاستهانة بالمسلَّمات في الشريعة بردّها أو سبّها أو بغضها أو السخرية من أصحابه، هذه الانحرافات كثيرة في صورها ومظاهرها، متعددة في مجالاتها وأنواعها، وهي بوابة خطيرة تشكل حرباً نفسية على الغيورين من أبناء الأمة إذا تركت دون روادع قولية وفعلية، تغلق الباب على أصحابها ومروجيها، وإذا لم تحسم في مهدها فإنها -وهي انحرافات فكرية- قد تولد انحرافات فكرية أشد خطراً وأعظم فتكاً(٨٧)، نسأله سبحانه أن يحفظ بلاد المسلمين من كيد الكائدين الذين يتبعون الشهوات، ويريدون الدمار للإسلام وأهله، ونلجأ إليه سبحانه أن يجمع كلمتنا على الحق والهدى بما يفوت على العدو الحاقد نشر مخططاته الهدامة، وتطبيق أهدافه الإجرامية.

التكفير بدون علم

التكفير مصدر كفّر يكفّر، ويقال: أكفره أي دعاه كافراً(٨٨)، وهو الحكم على مسلم بأنه خارج من دين الإسلام، وذلك لارتكابه مكفراً من المكفرات التي تخرجه من الإيمان إلى الكفر.

والتكفير بدون علم ولا بينة، والتعجل في إصدار هذا الحكم الخطير من أعظم أنواع

(٨٦) «التدوين في أخبار قزوين» لمؤلفه عبدالكريم القزويني (١/٤٠٤).
(٨٧) انظر: «حقيقة التطرف، الأسباب والعلاج» للشيخ سلمان بن فهد العودة، مجلة البيان» العدد (٦٧).
(٨٨) القاموس المحيط. ص٦٠٦، مادة كفر.

الانحراف الفكري في هذا العصر، وهو كذلك تساهل واستخفاف بالأحكام الشرعية عندما يطلق هكذا جزافاً دون وعي ولا بينة.

وكان التعجل في التكفير انحرافاً فكرياً خطيراً لأسباب، أهمها:

١- أن التعجل في إطلاقه بدون توافر شرطه وهو العلم الراسخ الذي ينبني على فهم الكتاب والسنة الصحيحة وكلام علماء السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم فهماً صحيحاً، هذا التعجل نوع من الاستهانة بشرع الله تعالى، وصورة من صور الافتراء الذي توعد الله تعالى صاحبه بالعذاب كما قدمنا في المبحث المتقدم، قال سبحانه: ﴿ **وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾** ﴾ (النحل: ١١٦-١١٧).

ومعلوم أنه لا يصار إلى القول بالتكفير إلا إذا توافر شرطان:

الأول: دلالة النص الشرعي على أن هذا العمل كفر مخرج من الملة، وذلك نحو ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾** ﴾ (التوبة ٦٥-٦٦).

واستهزاء المنافقين الذي ذكره الله تعالى هو ما حصل منهم في غزوة تبوك لما قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون النبي ﷺ وأصحابه- أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء»(٨٩)، وقد بيَّن سبحانه عدم عذرهم وكذبهم في ذلك ﴿ **لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** ﴾، وذلك أن «الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين،

(٨٩) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/١٦٦).

لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله تعالى وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل، ومناقض له أشد المناقضة(٩٠).

وكما دل النص الشرعي على كفر من فعل الجريمة السابقة دل كذلك على أن الإنسان قد يفعل فعلاً كفرياً أو يقول قولاً كفرياً ولكنه لا يكفر، وهو المكره على ذلك وقلبه مطمئن بالإيمان: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾**﴾(٩١).

الثاني: أن يكون الحكم بالتكفير منطبقاً على الشخص المعين، إذ هناك موانع من التكفير وإن كان القول أو الفعل في حد ذاته كفراً، قال ابن تيمية -يرحمه الله-: «وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله تعالى بها، فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ فإن الله تعالى يغفر له خطأه كائناً ما كان، سواء في المسائل النظرية أو العملية، هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ، وجماهير أئمة الإسلام»(٩٢).

٢- أن الذين حكموا بالتكفير وأصدروه إنما استدلوا بدليل لم يفهموا المراد منه كما فهمه علماء الإسلام، إذ الكثير ممن ينهج هذا النهج يستدل بقوله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾**﴾ (٩٣)، والحق الذي عليه كثير من أهل العلم أنه

(٩٠) «تيسير الكريم الرحمن» ص٣٤٢، ٣٤٢.
(٩١) النحل (١٠٩).
(٩٢) «مجموع الفتاوى» (٢٣/٣٤٦).
(٩٣) المائدة (٤٤).

لا يُحكم على من لم يحكم بما أنزل الله بأنه كافر ابتداء، لأن الكفر كفران، كفر أكبر، وكفر أصغر، والظلم ظلمان، والفسق فسقان كذلك، على ما مضى.

فمن استحل الحكم بغير ما أنزل الله، أو الزنا أو الربا أو غيرها من المحرمات المجمع على تحريمها فقد كفر كفراً أكبر، وظلم ظلماً أكبر، وفسق فسقاً أكبر.

ومن فعلها بدون استحلال كان كفره كفراً أصغر، وظلمه ظلماً أصغر، وفسقه فسقاً أصغر، وقد ثبت عن النبي ﷺ من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»(٩٤)، أراد بذلك الفسق الصغر، والكفر الأصغر، وأطلق هذه العبارة تنفيراً من هذا العمل المنكر(٩٥).

ومما يشهد لما مضى ما ثبت عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال في تعقيبه على قوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قال: «إنه ليس الكفر الذي تذهبون إليه، إنه ليس كفراً ينقل عن الملة، كفر دون كفر»(٩٦).

٣- أن الحكم بالكفر إذا أطلق على أحد ولم يصدق فيه رجع إثمه على صاحبه الذي أطلقه -عياذاً بالله تعالى-، فقد ثبت في الحديث، من رواية عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أنه قال: «أيما رجل قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما»(٩٧).

(٩٤) أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان) الحديث (٤٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، الحديث (٦٤).
(٩٥) انظر: «فتنة التكفير» للشيخ الألباني، وتعليقات سماحة الشيخ ابن باز، وابن عثيمين عليه، ط. دار ابن خزيمة.
(٩٦) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/٣٤٢) وصححه ووافقه الذهبي.
(٩٧) أخرجه بهذا اللفظ البخاري في كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (١٠/٥١٤) برقم (٦١٠٢).

قال ابن حجر: «والحاصل أن المقول له إن كان كافراً كفراً شرعياً فقد صدق القائل، وذهب بها المقول له، وإن لم يكن رجعت للقائل معرة ذلك القول وإثمه»(٩٨).

٤- ما يترتب على القول بالتكفير من المفاسد والفتن وانعدام الأمن، وظهور الحروب الأهلية، فتسفك الدماء، وتهتك الأعراض، وقد يتسلط الأعداء على البلاد المسلمة، فينهبون خيراتها، ويسيطرون على مقاليد الحكم فيها، والسبب في ذلك قلة الوعي والإدراك من أولئك المكفرين للمآسي والكوارث التي تترتب على فعلهم ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -يرحمه الله-: «اعلم أن مسائل التكفير والتفسيق هي من مسائل الأسماء والأحكام التي يتعلق بها الوعد والوعيد في الدار الآخرة، وتتعلق بها الموالاة والمعاداة والقتل والعصمة وغير ذلك في الدار الدنيا»(٩٩).

إن على أجيال المسلمين أن تدرك خطورة الأمر وشدته على بلاد المسلمين، وتعلم يقيناً أن ما يحدثه المكفرون من تفجيرات واعتداء على حرمات المسلمين إنما يخدم مصالح أعدائنا والحاسدين لنا، فإن كانوا عقلاء فليمسكوا عن تلك الأفعال حتى يغلقوا ذلك الباب الذي فتحوه للأعداء، والاعتراف بالخطأ والرجوع عنه ليس عيباً، بل هو عين العقل والحكمة، ومن تاب تاب الله تعالى عليه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

البغي

البغي صورة من صور الإفساد في الأرض، وهي إحدى النتائج الخطيرة لانحراف

(٩٨) «فتح الباري» ١/ ٤٦٦، ٤٦٧).
(٩٩) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٦٨).

فكر الإنسان، والبغي في أصله اللغوي يدور حول أمرين:

الأول: طلب الشيء، والثاني: جنس من الفساد، ومن الثاني قولهم: بغى الجرح، إذا ترامى إلى فساد.. ومنه أن يبغي الإنسان على آخر «وإذا كان ذا بغي فلا بد أن يقع منه فساد» كذا قال ابن فارس(١٠٠).

والبغي يحمل صوراً أو أنواعاً متعددة، والذي نريده هنا ما يكون ناشئاً من انحراف في فكر المرء، وهو الخروج على الحاكم المسلم بتأويل سائغ، والأصل فيه قوله، سبحانه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ ﴾ (١٠١).

فذكر سبحانه هذا الأمر بقتال من بغى على غيره من المسلمين، ولا شك أن الخروج على الحاكم المسلم من أعظم البغي(١٠٢)، وقد ثبت في السنّة حرمة هذا البغي والخروج على الإمام، كما روى عبدالله بن عمرو فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعطى إماماً صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»(١٠٣).

ولا بد أن ينتبه هنا إلى أن البغاة الذين يخرجون بتأويل سائغ لا يقاتَلون ابتداءً، وإنما يناقَشون ويبين العلماء لهم الحق بحرمة الخروج على السلطان، ويناقشونهم في أدلتهم وحججهم التي سوغت لهم في نظرهم الخروج على السلطان، فإن رجعوا ودعت

(١٠٠) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ٣٧٢) مادة (بغى).
(١٠١) الحجرات (٩).
(١٠٢) انظر: «المغني» لابن قدامة (١٢/ ٢٣٧).
(١٠٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء (٣/ ١٤٧٢).

الضرورة إلى قتالهم قاتلهم الإمام لمنع الفتنة ووأدها في مهدها، ويدفعون بالأسهل فالأسهل(١٠٤).

ولا بد أن نعلم هنا أنه لا يجوز الخروج على الحاكم حتى لو أتى بمكفرات تخرجه من الإسلام إذا ترتب على الخروج فتنة أعظم، وذلك هو الغالب على أحوال الناس اليوم.

ثبت في الحديث من رواية عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- قال: «دعانا رسول الله ﷺ، فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان»(١٠٥).

قال سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز -رحمه الله- في تعليقه على كتاب «العزلة والخلطة» للشيخ سلمان بن فهد العودة «عند قول المؤلف: «فإذا كفّوا وجب خلعهم واستبدال غيرهم بهم» قال الشيخ ابن باز: «إذا كان كفرهم بواحاً لا شبهة فيه واستطاع المسلمون الخروج عليهم وإزالتهم، أما إذا لم يستطيعوا فلا يجوز الخروج والحال ما ذكر، لما يترتب على ذلك من الفساد والفتن وقتل المسلمين، وقتل الدعاة إلى الله تعالى، إلى غير ذلك، ولهذا لم يخرج النبي ﷺ ومن معه من الصحابة قبل الهجرة على كفار مكة لضعف المسلمين وعجزهم عن قتالهم، ولما يترتب على ذلك من القضاء على الإسلام وأهله، ولهذا صالحهم -عليه الصلاة والسلام- يوم الحديبية ولم يقاتلهم؛ لما في ذلك من مصلحة للمسلمين، وتسهيل دخولهم - أعني الكفار- في الإسلام، وأمن الطرق

(١٠٤) انظر: «التمهيد» لابن عبدالبر (٢١/٢٨٣).
(١٠٥) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية (٣/١٤٧).

حتى يهاجر من يريد الهجرة، مع ما وقع في الصلح من الغضاضة على المسلمين، فالتزم بها صلى الله عليه وسلم لتحقيق المصلحة العظمى للمسلمين التي أشرنا إليها آنفاً والله ولي التوفيق»(١٠٦).

وعلى ما تقدم فإن ما يحدث في أرض الحرمين من تفجير وقتل للمعاهدين والمستأمنين، وما تبعه من قتل للمسلمين نوع من البغي والخروج على إمام المسلمين وسلطانهم والذي حرمه الله تعالى ورسوله ﷺ كما تقدم بيانه، وهي لا تزيد البلاد والعباد إلا هلاكاً ودماراً، ومن المؤسف أن تكون بيد أناس من أبناء البلاد نفسها، ولذلك لا يفرح بها إلا أعداؤها المتربصون بنا الدوائر في كل مكان، ولا بد أن يعلم الخارجون على سلطان المسلمين بهذه الأعمال التدميرية والتخريبية أنهم إنما جرهم إلى ذلك التأويل، وهذا ما حذّر منه السلف قديماً، وبينوا ما جرَّه على البلاد والعباد من إزهاق الأرواح، والفساد العريض.

قال ابن القيم -رحمه الله-: «وبالجملة فافتراق أهل الكتابين، وافتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إنما أوجبه التأويل، وإنما أريقت دماء المسلمين يوم الجمل وصفين والحرة، وفتنة ابن الزبير وهلمّ جراً بالتأويل، فما امتحن الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل.

وما الذي سفك دم أمير المؤمنين عثمان -رضي الله عنه- ظلماً وعدواناً وأوقع الأمة فيما أوقعها فيه حتى الآن غير التأويل؟

وما الذي سفك دم علي، وابنه الحسين، وأهل بيته -رضي الله عنهم- غير التأويل؟»(١٠٧).

---

(١٠٦) من تعليقه -يرحمه الله- على كتاب «العزلة والخلطة» ص١٠٤، الحاشية.
(١٠٧) «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٥١).

ويقول كذلك: «ولو ذهبنا نستوعب ما جناه التأويل على الدنيا والدين، وما نال الأمم قديماً وحديثاً بسببه من الفساد لاستدعى ذلك عدة أسفار، والله المستعان»(١٠٨).

المبحث الثالث
سبل الوقاية والعلاج

الاعتصام بالكتاب والسنّة

إذا أراد المسلم النجاة من الانحراف الفكري الذي يهلكه في دنياه وآخرته فليعتصم بكتاب الله تعالى، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليرجع في فعله وتركه إلى سنّة نبيه محمد ﷺ، ولذا بيّن الله تعالى أن في طاعته سبحانه وطاعة رسوله محمد ﷺ الفلاح والنجاة، وإذا أفلح المرء ونجا فإن ذلك هو مطلوب كل عاقل، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴿١٣﴾﴾ (١٠٩)، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ (١١٠)، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾(١١١)، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾(١١٢). إن ذلك بيان واضح

(١٠٨) المرجع السابق (٢/٢٥٤).
(١٠٩) النساء (١٣).
(١١٠) النساء (٦٩).
(١١١) النور (٥٢).
(١١٢) الأحزاب (٧١).

لكل من أراد النجاة من الانحراف كله في جميع شؤون الحياة، بأن نجاته مرهونة بامتثاله لكتاب ربه، وسنّة نبيه محمد ﷺ، ويفهم من ذلك أنه إن انحرف عنهما وأخذ منهجه من غيرهما لم يكن من الفائزين ولا الناجين يوم القيامة(١١٣)، وهذا الأمر الذي بينه الله تعالى أكد عليه كذلك رسوله ﷺ، فقد قال: «إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض»(١١٤).

وهذا دليل واضح على أن سبب ضلال الناس وانحرافهم عن الدين والأخلاق هو عدم اعتصامهم بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

ومعنى قوله ﷺ: «ولن يتفرقا» أي الكتاب والسنّة في مواقف القيامة.

«حتى يردا عليّ الحوض» أي الكوثر، يعني فيشكرانكم صنيعكم عندي، فتأملوا واستعملوا الروية في استخلافي إياكم، هل تكونون خلف صدق أو خلف سوء»(١١٥).

ولا بد أن يفهم هنا أن الاعتصام بالكتاب والسنّة إنما ينجي من الضلال إذا فهما حسبما فهمهما سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، بعيداً عن الأهواء والمقايسس والمقولات، والأذواق والكشوفات والمواجيد كما قال ابن القيم -يرحمه الله- عند بيان حقيقة الاعتصام بالقرآن: «وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم ومعقولاتهم وأذواقهم وكشوفاتهم ومواجيدهم، فمن لم يكن كذلك فهو منسلٌّ من هذا الاعتصام، فالدين كله في الاعتصام به وبحبله، علماً وعملاً، وإخلاصاً واستعانة، ومتابعة واستمراراً

---

(١١٣) انظر: «جامع البيان» (١٨/١٥٧)، و«معالم التنزيل» (٢/٢٥٢)، و«إرشاد العقل السليم» (٦/١٨٨).
(١١٤) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/١٧٢)، وأورده شاهداً لحديث رواه قبله بمعناه وصححه ووافقه الذهبي.
(١١٥) انظر: «تحفة الأحوذي» للمباركفوري (١٠/١٩٧) ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

على ذلك إلى يوم القيامة»(١١٦).

لزوم الجماعة

إن لزوم الجماعة - وهم السواد الأعظم الموافقون لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه(١١٧)-، سبب رئيس بإذن الله تعالى للسلامة من الانحراف الفكري في جميع أبواب الدين: العقدية والشرعية والسياسية، ولذا جاء عن السلف تفسير (حبل الله) في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿١٠٣﴾﴾(١١٨)، بأنه لزوم الجماعة(١١٩).

وثبت عن النبي ﷺ الحث على لزوم الجماعة والتحذير من مخالفتها، وبيانه أن الهلاك في المخالفة كما روى ابن عمر -رضي الله عنهما- عنه ﷺ أنه قال: «لا يجمع الله هذه الأمة على ضلالة أبداً، ويد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار»(١٢٠).

وثبت كذلك أن مفارقة الجماعة سبب في موت المفارق ميتة جاهلية، روى أبو هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه من فارق الجماعة فمات إلا مات ميتة جاهلية»(١٢١)، وفي حيث آخر: «إن الله أمرني بالجماعة، وإنه من خرج من الجماعة

(١١٦) «مدارج السالكين» (٣/٣٢٨).
(١١٧) انظر: «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٨/٣٣٨)، و«تلبيس إبليس» لابن الجوزي ص٢٨٢. و«وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق» للأستاذ جمال بادي ص٩٨.
(١١٨) آل عمران (١٠٢).
(١١٩) انظر: «جامع البيان» (٣/٢٧٨) ط. دار الكتب العلمية.
(١٢٠) أخرجه بهذا اللفظ اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» الحديث (١٥٤)، وحسنه محقق الكتاب وقواه الحاكم في مستدركه (١/٢٠١).
(١٢١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن (٦/٢٥٨٨) برقم (٦٦٤٦).

شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»(١٢٢).

والمراد بالميتة الجاهلية: حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال، وليس له إمام مطاع، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافراً، بل يموت عاصياً(١٢٣).

وقوله: «خلع ربقة الإسلام من عنقه» الربقة في الأصل عروة في حبل، تجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها، فاستعارها للإسلام، أي ما يشد به المسلم نفسه من عرى الإسلام، أي حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه. كذا قال السيوطي(١٢٤).

وقال الخطابي: الربقة: ما يجعل في عنق الدابة، كالطوق يمسكها لئلا تشرد.. والمراد أن من فارق الجماعة في الأمر المجتمع عليه فقد ضل وهلك، وكان كالدابة إذا خلعت الربقة التي هي محفوظة بها، فإنها لا يؤمن عليها، ثمَّ ذلك الهلاك والضياع»(١٢٥).

وبهذا يتضح لنا أن ذلك الضلال الذي وقع فيه كثير من المسلمين إنما وقع بسبب مخالفة جماعة المسلمين، كما فعل ذلك منكرو صفات الباري -سبحانه- من الجهمية والمعطلة، وكما فعل مبيحو المحرمات من أصحاب الشهوات والشبهات من دعاة الفجور والزنا، الدعاة على أبواب جهنم، من أطاعهم قذفوه فيها -عياذاً بالله تعالى-.

حقاً إن ما مضى من أدلة واضحة على وجوب لزوم الجماعة مما يطهر القلب من الغل والغش، ذلك أن ملازمة المسلم لجماعة المسلمين تجعله يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره

(١٢٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٠، ٢٠٢) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» برقم (١٥٧) وقال محقق الكتاب: «الحديث بمجموع طرقه حسن».
(١٢٣) انظر: «فتح الباري» (١٢/ ٧)، و«شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٢٣٨)، و«شرح السيوطي على النسائي» (٧/ ١٢٣).
(١٢٤) في شرحه على سنن النسائي (٨/ ٦٥).
(١٢٥) نقل ذلك صاحب «عون المعبود» (١٢/ ٧٢).

لهم ما يكره لها . ويسوؤه ما يسوؤهم، وهذا خلاف من انحاز عنهم واشتغل بالطعن فيهم والذم لهم، كما يفعله بعض المبتدعين، كالخوارج والمعتزلة ولاعني الصحابة وغيرهم، فإن قلوبهم ممتلئة غلاً وغشاً، ولذلك تجد لاعني الصحابة أبعد الناس عن جماعة المسلمين .

إن دعوة المسلمين كالسور والسياج المحيط بهم المانع من دخول عدوهم عليهم، وهي دعوة الإسلام، ومن لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم، والدعوة تجمع شمل الأمة وتلم شعثها وتحيط بها، فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته(١٢٦) .

ملازمة العلماء

إن من أعظم المزالق التي يقع فيها كثير من الناس اليوم أنهم يعتُّدون بأنفسهم كثيراً، ولا يتكلف بعضهم أن يسأل في الموضع الذي يريد تناوله والولوج فيه مهما كانت خطورة الأمر، وهذا ما يجب أن ننبه إليه هنا، إنه بالارتباط بالعلماء المتقين يحصل الخير والنجاة -بإذن الله تعالى- من كثير من الانحراف والضلال، ولو ذهبت تتأمل في أهل العلم المشهود لهم بالاستقامة والتقوى لوجدتهم جُلَّهم ممن أفنى عمره في ملازمة الشيوخ والعلماء، لا ينفك عنهم مهما كانت شواغله .

ولو ذهبت تتأمل في أحوال المنحرفين والساقطين في حبائل الشيطان الرجيم قديماً وحديثاً لوجدتهم من الجهلة والسفهاء، الذين قادهم الشيطان بسبب جهلهم وتركهم

(١٢٦) انظر: «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٧٢ ، ٧٣).

للعلم وأهله إلى مهاوي الردى، وبؤر الفساد والغلو، والانحطاط الأخلاقي والفكري بكل صوره ومظاهره.

ولا عجب في ذلك، لأن الاتصال بالعلم وأهله الراسخين فيه يوصل إلى خشية الله تعالى، التي تورث فعل الخيرات، واجتناب المنكرات، وصدق الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١٢٧).

قال الشيخ عبدالرحمن ابن سعدي: «فكل من كان بالله أعلم كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله تعالى، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (١٢٨) (١٢٩).

إن الاتصال بالعلماء وثني الركب في مجالسهم من أسباب حصول التقوى عند من يختلط بهم ويطلب العلم منهم، وهو من أسباب حصول السعادة في الدنيا والآخرة، لأن العالم المستقيم على طاعة ربه يؤثر في طلابه، وتسري الخشية لله تعالى الموجودة في قلبه إلى قلوب طلابه، فينتفعون من ذلك انتفاعاً عظيماً، كما يقول ابن الجوزي -يرحمه الله- وهو يبين تجربته في ذلك: «ولقيت عبدالوهاب بن المبارك الأنماطي، فكان على قانون السلف، لم يسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه، فكنت وأنا صغير السن حينئذ

(١٢٧) فاطر (٢٨).
(١٢٨) البينة (٨).
(١٢٩) «تيسير الكريم الرحمن» ص٦٨٩.

يعمل بكاؤه في قلبي ويبني قواعد . . »(١٣٠) .

وإن الاتصال بأهل العلم في وقت الأزمات المدلهمة والفتن المتلاطمة يعد واجباً من أعظم الواجبات التي لا يجوز تأخيرها أو تركها، ولو راجع حملة السلاح الذين خرجوا على الحاكم المسلم في بلاد الحرمين منهج الشيخين الجليلين عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز، ومحمد بن صالح ابن عثيمين لما حملوا السلاح، ولما قادتهم التأويلات الفاسدة إلى سفك الدماء وإخافة المسلمين، لأن منهج الشيخين في ذلك معروف، وهو تحذير المسلمين من هذه الأعمال وتحريمها، وبيان خطرها على البلاد والعباد (١٣١) .

طاعة الحاكم المسلم

نص الله تعالى في القرآن الكريم، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ على وجوب طاعة أولي الأمر من الحكام والأمراء، لما يعلمه سبحانه من حصول المنافع واندفاع المضار جراء ذلك، وهو سبحانه الخبير بمصالح الخلق ومنافعهم .

قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴿٥٩﴾ ﴾(١٣٢)، وأولو الأمر في الآية هم الولاة والأمراء، هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم (١٣٣) .

---

(١٣٠) «صيد الخاطر» لابن الجوزي ص١٥٠ط. دار الفكر.

(١٣١) انظر: «معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنّة» للشيخ عبدالسلام بن برجس العبدالكريم ص١٢٨، و«فتنة التكفير» ص٦٩.

(١٣٢) النساء (٥٩).

(١٣٣) انظر: «جامع البيان» (٥/ ١٥٠) و«واعتقاد أهل السنة» للإمام اللالكائي (١/ ٧٣)، و«المحلى لابن حزم» (١/ ٦٦)، و«السنة» للخلال (١/ ٦٦)، و«الأم» للشافعي (١/ ٢٠٢).

وثبت هذا الأمر في السنة كما روى عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أنه قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»(١٣٤).

ولا يعني الأمر بطاعتهم -أعني الحكام- الخضوع لهم في كل شيء، بل ذلك كما أفاد الحديث المتقدم خاص في الأمور المشروعة والمباحة، أما طاعتهم فيما حرم الله تعالى فلا تجوز، وتجب المناصحة لهم سراً، ولا تجوز علناً أمام الناس، لأن ذلك يحرض العوام والغوغاء على ولاتهم، وهذا مما يقود إلى الفتن.

كما يجب أن تكون المناصحة بتلطف وتأنٍّ بلا فظاظة ولا غلظة، فإن استجابوا وإلا فقد أدى الناصح ما عليه وسلم من الإثم، ولا يجوز له الخروج عليه أو التحريض ضدهم في الخطب والدروس والمحاضرات، لأن ذلك خلاف منهج السلف -رحمهم الله-، وقد كان عدد من الصحابة يرون زمن الحجاج بن يوسف الظلم والإسراف في سفك الدماء، وانتهاك حرمات الله تعالى، ورغم حدوث ذلك لم يعرف أنهم خرجوا عليه أو حرضوا ضده.

واستمر العمل على ذلك بين علماء الأمة، يأمرون بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ والجهاد في سبيله مع كل إمام، براً كان أو فاجراً، ووقع في عصر أحمد بن حنبل والشافعي وابن راهوية من الملوك ما وقع من البدع والعظام وإنكار الصفات، ودعوا إلى ذلك وامتحنوا فيه، وقتل من قتل كأحمد بن نصر، ومع ذلك لا يعلم أن أحداً منهم نزع يداً من

(١٣٤) رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ومسلم في كتاب الإمارة (١٤٦٩/٣) برقم (١٨٣٩).

طاعة، ولا رأى الخروج عليهم(١٣٥).

وعلى هذا لا عبرة بما يفعله بعض الجهلة وأنصاف المتعلمين من التشهير بالحكام والأمراء في المجامع العامة وإن كان قصدهم حسناً، لأنه ليس كل ما حسنت فيه النية كان صواباً، وعلى كل من أراد أن يعمّ الخير والصلاح بلاد المسلمين أن ينظر سبيل الصحابة والتابعين، وليلزمه، فإنهم أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ بمصالح الأمة، فالخير كل الخير في اقتفاء آثارهم، والشر كله في مخالفتهم وتنكب طريقهم، وليتسلح كما تسلح القوم بسلاح الصبر على الجور، فإنه لا يأتي إلا بخير.

الحذر من العدو

إذا أراد المسلم الغيور على دينه، المحب لله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين أن يحفظ نفسه ودينه وعقله من الانحراف الفكري، والانسياق وراء الشهوات، والسلامة من الغلو في الدين، والخروج عن منهج الوسطية فليحذر من العدو الذي يتربص به الدوائر وهو لا يشعر ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (١٣٦).

يجب عليه أن يحفظ عقيدته مما يدنسها، وينتبه لما يروجه القبوريون الذين يطوفون على القبور وينذرون لها، ويدعون أصحابها من دون الله تعالى، وليراجع (كتاب التوحيد) لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب -يرحمه الله- فإنه سينتفع منه انتفاعاً عظيماً، وسيكون له حصناً بعد الله تعالى ضد التيارات الشركية والبدعية -بإذن الله تعالى.

(١٣٥) انظر: «معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة» ص١٢ ، ١٤.
(١٣٦) المائدة (٤٩).

وليحذر في باب صفات الله تعالى من طريقة الجهمية والمعطلة ومن نحا نحوهم من منكري الصفات، وليراجع ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك في كتبه: «الواسطية» و«الحموية» و «التدمرية»، وليراجع كذلك ما دونته اللجنة الدائمة للبحوث العلمية في بلاد الحرمين في «ضلال جماعة الأحباش» والرد عليهم فيما ذكروه من تجويز الشرك، وتحريف الصفات، وطعنهم في أصحاب النبي ﷺ وغير ذلك من انحرافاتهم الفكرية المدمرة»(١٣٧).

* ولا بد أن يتنبه مريد السلامة من المسلمين إلى الأودية السحيقة التي وقع فيها عباد الشهوات ومثيرو الشبهات بسبب ما تدنسوا به من الركض وراء شهوة الفروج والبطون، حتى لا يقع المسلم في شباكهم من التأثر بدعوات تحليل الفروج والانصهار في بؤر الرذيلة والزنا ودواعيه من العشق وسماع المحرمات الذي أوصل بعضهم إلى الإلحاد -عياذاً بالله تعالى-.

* كما يجب على المسلم حتى يحفظ قلبه وعقله من الانسياق وراء الضلال والانحراف أن ينتبه لما يثيره الغلاة ودعاة التكفير من الأفكار المخالفة لمنهج السلف، ويراجع - فيما يقع تحت يده من شبهاتهم- من يثق به من أهل العلم المعروفين بالخشية والتقوى، فسينتفع بهم كثيراً، وليقرأ في هذا الباب كتاب «فتنة التكفير» لجماعة من العلماء: ناصر الدين الألباني، وابن باز، وابن عثيمين، فإن فيه حلاً لكثير من الشبه التي ترد على أذهان الكثيرين في هذا الباب.

---

(١٣٧) وانظر: «جامع البيان» (٣/ ٦١٤)، ط. دار الكتب العلمية. و«في ظلال القرآن» (٢/ ٧٥٦)، و«تيسير الكريم الرحمن» ص٢٣٤.

المعالجة بأسلوب الإقناع

الإقناع يراد به: جمع الأدلة واختيار الأسلوب الذي يجعل الطرف الآخر مقتنعاً، وراضياً، ومسلّماً بالفكر والرأي الذي يطرح عليه.

وقد استعمل هذا الأسلوب التأثيري أعظم استعمال وأبلغه في القرآن الكريم أثناء الحوار مع المشركين عبدة الأوثان ودعاة الأصنام، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ ﴿١٤﴾ ﴾ (١٣٨).

وقال سبحانه: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾(١٣٩).

وقال: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (١٤٠).

وفي معرض احتجاج مؤمن آل ياسين على قومه استخدم أسلوب الإقناع بقوله: ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١٤١)، فقد «أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفاً لهم، ونبّه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، مستهجن تركها، قبيح الإخلال بها، فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه، ونعمه كلها بعدُ تابعة لإيجاده وخلقه، وقد جبل الله تعالى العقول والفطر على شكر المنعم، ومحبة المحسن، ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في ذلك، فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع»(١٤٢).

(١٣٨) الأنعام (١٤).
(١٣٩) الأنبياء (٢٤).
(١٤٠) الزمر (٣٨).
(١٤١) يس (٢٢).
(١٤٢) «بدائع التفسير الجامع تفسير ابن القيم» جمعها يسري السيد (٣/٤٧٧).

وعندما نريد أن نُرْجِع من انحرف في فكره إلى طريق الكتاب والسنة فعلينا أن نستخدم الطرق الجيدة للإقناع، ويمكن بيانها مختصرة فيما يأتي:

١- استخدام أسلوب التلطف عند الإقناع، كما قال سبحانه على لسان موسى -عليه السلام- مخاطباً فرعون: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (١٤٣) (١٤٤).

٢- استخدام الدليل، والإقناع بالدليل يتطلب عدة أمور:

(أ) صحة الحجة. (ب) صحة الدلالة. (ج) ترتيب الأدلة. (د) ترك التشهي. (هـ) توضيح الغامض منها(١٤٥).

٣- نقض الدوافع أو إثارتها، فإنها تكون أشد أثراً وعمقاً، ويوضح ذلك قصة الفتى الذي قال للنبي ﷺ: «ائذن لي في الزنا» فقال له النبي ﷺ كلاماً نقض كل الدوافع لديه لحب الزنا، حين ذكّره أن الناس كمثله، لا يحبونه لأمهاتهم ولا لبناتهم ولا لأخواتهم ولا لعماتهم ولا لخالاتهم ثم وضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه» فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيء(١٤٦).

٤- دفع الشّبه التي يثيرها من يراد إقناعه، وذلك نحو من يدعو إلى الانحلال الخُلقي بحجة أن ذلك تحرير للإنسان، وذلك بأن يقال له: إن الغرب الذي عاش هذا الانحلال بكل مجالاته ومظاهره قد بدأ عقلاؤه بالتبرم والاستياء منه، وتمنوا أن تكون بلادهم كبلاد

(١٤٣) النازعات (١٨،١٩).
(١٤٤) انظر: مقال «الدعوة إلى الله تعالى بين الأسلوب والمضمون» د. صالح الخالدي، مجلة البيان عدد (٤).
(١٤٥) انظر: «السبيل إلى انحسار البدع» للأستاذ سلمان السنيدي، مجلة البيان، العدد (١٠٨).
(١٤٦) أخرجه أحمد في المسند (٥/٣٤٢) ط. مؤسسة التاريخ العربي.

المسلمين، فيها العفة والطهارة والستر(١٤٧)، ومن ذلك ما يفعله بعض أبناء المسلمين من قتل المشركين في بلاد الحرمين وغيرها بحجة حديث: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»(١٤٨)، وذلك بأن يقال له: هذا الأمر موجه إلى الحاكم المسلم، كما أن الأمر إنما هو بالإخراج وليس بالقتل، فإذا قتله فرد من المسلمين يكون قد تعدى سلطة الحاكم وهذا مخالف للشريعة، بلْهَ أن مفهوم (جزيرة العرب) مختلف في المراد به؛ إذ إن بعض العلماء يخصصها بالمدينة النبوية، وعلى فرض أن الراجح فيها ما كانت تحيط به البحار الثلاثة: البحر الأحمر، والخليج العربي، والفرات فإنه يجاب عنه بما تقدم(١٤٩)، والله أعلم.

٥- ترك المبالغة والزيادة في عرض الموضوع؛ لأنها تضعف الإقناع، وذلك كأن يعظم الرجل الذي يحتج به بشيء فوق منزلته.

٦- إتقان الصمت والاستماع، فإن لك مما يعطي المقنع في حواره مع المعارض فرصة لمعرفة أفكاره ومنطلقاته(١٥٠).

الدعاء

إن اللجوء إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع إليه وخاصة في أوقات الإجابة كالسجود وآخر الليل، وحال الصيام، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات، إن

(١٤٧) انظر: «السقوط من الداخل» د. محمد البشر ص٨٧ ط. دار العاصمة.
(١٤٨) أخرجه البخاري (٢/١١١١) ومسلم (٣/١٢٥٨).
(١٤٩) انظر: «شرح النووي على مسلم» (١١/٩٩)، و«المغني» لابن قدامة (٩/٢٨٢).
(١٥٠) «صفات المربي» الأستاذ أحمد فهمي، مجلة البيان، العدد (١٤٤).

ذلك وسيلة من أعظم الوسائل للنجاة من الوقوع في أي انحراف فكري قد يدمر صاحبه في دنياه وفي أخراه.

ومن هنا لما كان الشيطان الرجيم -أعاذنا الله تعالى منه- هو القائد الذي يقود المرء إلى الشطط والانحراف وراء التيارات الفكرية المدمرة، لما كان كذلك أرشدنا الله تعالى إلى الاستعاذة من همزات الشيطان ووساوسه التي لا تقود إلا إلى الشر، قال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ (١٥١) فأرشد -جلَّ شأنه- إلى الاستعاذة من الشر الذي يصيب المرء بسبب مباشرة الشياطين وهمزهم ومسهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وذلك استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشياطين، ومن مسِّه ووسوسته، فإذا أعاذ الله تعالى عبده من هذا الشر وأجاب دعاءه سلم من كل شر، ووفِّق لكل خير (١٥٢).

وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى اللجوء إلى الله تعالى بالتعوذ من فتنة المحيا، والتي منها انحراف فكر المرء عما يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ، وذلك عندما كان يستعيذ بالله تعالى بقوله ليعلِّم أمته: «وأعوذ بك من فتنة المحيا»(١٥٣).

ومن هنا أرى أن من أهم المهمات لتجنب الانحرافات الفكرية ولتجنيبها بلاد المسلمين أن يلجأ العبد المسلم إلى الله تعالى في أن يصرف عن الأمة المسلمة وشبابها كلَّ شر وفتنة

---

(١٥١) المؤمنون (٩٧، ٩٨).
(١٥٢) «تيسير الكريم الرحمن» ص٥٥٩.
(١٥٣) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التعوذ من المحيا والممات (١١/١٧٦)، برقم (٦٢٦٧).

تقودهم إلى ما يدمر عقولهم، ويفسد قلوبهم من الآراء الشاذة، والأفكار الهدامة، كما ينبغي لنا أن نذكر كل من خالف جماعة المسلمين وانحرف عن طريق الأنبياء والمرسلين، فاتبع هواه وأطاع الشيطان، أن نذكره أن يسلك هذا الطريق العظيم الذي إن صدق فيه وأخلص قاده إلى ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة، وذلك بأن يدعو إليه -عزَّ وجلَّ- أن يصرف عنه كل فكر منحرف، وكل جماعة ضالة عن الصراط الحق. وسوف يعلم -بإذن الله- أنه كان مخالفاً للمنهج الذي يرضاه الله تعالى ورسوله ﷺ، وليستحضر أسباب الإجابة، ليتحرَّ أوقات إجابة الدعاء كما تقدم، وليوقن أن الله تعالى لا يخيب من دعاه، ولا يرد من سأله وناجاه.

الخاتمة

يمكن بيان أهم النتائج التي توصلت إليها فيما يأتي:

١ - أن الانحراف الفكري يكمن في كل أمر خالف فيه صاحبه الأوامر الربانية، التي ذكرها الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وأجمع عليها سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمة وهداتهم.

٢- الانحراف الفكري لا يمكن حصر مظاهره وصوره، لأنها لا تنتهي.

٣- أبرز أسباب الانحراف الفكري: الابتداع واتباع الهوى، واتباع المتشابه، والتعصب والتحزب، والأخذ بالإشاعات.

٤- أبرز مظاهر الانحراف الفكري وصوره: الإلحاد بإنكار الخالق - سبحانه -

استحلال المحرمات الشرعية، والتكفير بدون علم، والبغي.

٥- الانحراف مرض متفشٍّ في الأمة، ولكل مرض علاج ودواء، والعلاج يكمن في أمور: الاعتصام بالكتاب والسنة، ولزوم الجماعة، وملازمة العلماء، وطاعة الحاكم المسلم بالمعروف، والحذر من العدو، وإقناع الطرف الآخر، والدعاء، وأكرم به من علاج ناجع لكل الأمراض.